هل نحن اسعد من آبائنا

كلام عن سعادة الشرقيين في الماضي والحال

القى احد علماء اوربا خطبة جاء فيها ما خلاصته: ان المعيشة في العالم اصبحت في غاية الجمال واللذة · فالناس يتخاطبون من اطراف الدنيا الى اطرافها كأنهم في غرفة واحدة والصناعة والزراعة والكيمياء تخرج للانسان خيرات الارض وتصنع عجائب وغرائب فيها · والعلم يكشف الغطاء عن اسرار الطبيعة سرًّا بعد سرّ وسيقبض عليها جميعها · والعالم يظهر جميلا جميلا كأنه روضة فيحاء غرستها يد الخالق العزيز لمسرّة الانسان وهنائه · فلو قام اجدادنا الاولون الذين كانوا يعيشون في المغاور والكهوف وشاهدوا ما نحن فيه من السعة والسعادة وجمال المعيشة لغبطونا وحسدونا على ذلك حسداً ما بعده حسد

الا اننا في نسخة الجريدة التي اطلعنا فيها على هذه الخطبة اطلعنا على ردّ عليها من كاتب مشهور يتهكم على جمال معيشة اليوم وسعادة ابناء المدنية الحاضرة تهكماً مضحكاً · ومن جملة ما قاله انه لو بُعث اجدادنا الاولون الذين عناهم حضرة الخطيب في خطبته لما كان لهم ان يغبطونا ولا ان يحسدونا على شيءٍ مما نحن فيه · فان زخارف المدنية وبهارجها التي تغزّل بها الخطيب قد اشتراها البشر اليوم بثمن فادح وكثيراً ما كان هذا الثمن شرف الانسان وذمته وصحته وراحته · وفضلاً عن هذا فان المدنية الحاضرة تجعل الحياة جهاداً هائلاً لا يقوم منه الا الاقوياء واما الضعفاء فيداسون دوساً · بل الاقوياء انفسهم مستاؤون من هذا الجهاد لانه كلما كثرت اسباب المدنية كثرت حاجاتهم وبالتالي زاد تعبهم وعناؤهم في تحصيل هذه الحاجات والوصول اليها · اما في حالة اجدادنا الاولين سكان المغاور والكهوف فالحاجات الضرورية قليلة وتحصيلها سهل لسذاجة معيشتهم ولذلك كان تعبهم اقل وراحتهم اكثر من راحة ابناء التمدن الحديث

قالت الشاعرة العربية

ولبس عباءة وتقرّ عيني احب اليّ من لبس الشفوفِ
وبيت تلعب الارياح فيه أحب اليّ من قصرٍ منيفِ

فلما فرغت من مطالعة هذه الخطبة والرد عليها رأيت انها تصحّ ان تكون خير مدخل الى هذه المسألة (هل نحن معاشر الشرقيين أسعد حالا من آبائنا) على انه يجب اولاً حصر هذا الموضوع في نقطة للتمكن من حل هذه المسألة حلاً حقيقياً. وفراراً من اطالة الكلام فنقول ان مدار هذه المسألة الحقيقي هو المعيشة العائلية الاجتماعية . وقبل كل شيء نحب ان نعرّف المادتين اللتين يقوم عليهما هذا الموضوع قيامه على دعامتين. المادة الاولى (السعادة المقصودة هنا) والمادة الثانية (العائلة) ومتى عرفنا هاتين المادتين وحددناهما سهل الحكم في هذا الموضوع ولكن اذا لم نحددهما كان بحثنا بلا جدوى ولو بحثنا العمر كله

﴿ تعريف السعادة ﴾ واول ما نتصدّى الى تعريف السعادة نرى في وجهنا خلافاً عظيماً ذلك لانه لم يختلف في مادة كاختلاف الناس في (السعادة وماهيتها) الا ان جميع وجوه الخلاف في هذا التعريف يمكن ردّها الى اصلين تتفرع عنهما باقي وجوه الخلاف . وهذان الاصلان هما تعريف (الروحيين) للسعادة وتعريف (الماديين) لها . فالروحيون مع رجال الدين يعرّفون السعادة بانها ,, شعور الانسان بالسلام الداخلي وراحة النفس والقناعة حتى في وسط المتاعب ،، ومن اقوالهم المأثورة ,, ان سعادة الانسان كائنة في ان يجعل غيره سعيداً ،، واما الماديون ومن حذا حذوهم فللسعادة عندهم تعريف آخر . قال في تعريف السعادة الفيلسوف الالماني الاكبر فردريك نيتش الذي قيل فيه ,, انه هو وبسمارك هما اللذان صاغا المانيا الحديثة واعطياها ما فيها الان من قوة نفس وبدن ،، ما نصه ,, ان السعادة كائنة في شعور الانسان بازدياد قوته وسلطته ،، فالقارئ يرى الخلاف العظيم الكائن بين هذين التعريفين . فان الاول يشتق السعادة من (عواطف الانسان) والثاني يشتقها من (نشاطه وعمله) . الاول ايديالیست

محض والثاني رياليست محض في تعريفه · فاذا أردنا الان الحكم على العائلة الشرقية والنظر في هل كانت بعد دخول المدنية اليها أسعد حالاً مما كانت قبله" أنحكمُ عليها بالنظر الى تعريف الروحيين ام بالنظر الى تعريف الفيلسوف نيتش ؟ من هنا بدأت معنا الصعوبة في الحكم في هذه القضية حكماً قاطعاً · الا انه بعد هذا البيان بدأت معنا سهولة في إرجاع حكم كل متكلم في هذه المادة الى احد التعريفين المذكورين آنفاً · فالذين سيحكمون ان العائلة السورية والمصرية كانت قبل التمدن الحديث أسعد منها الان ينظرون الى السعادة من جهة (الروحيين) لانهم يرون ان سذاجة المعيشة والسكينة والرضى بالقليل والاقتصاد والتدبير والطاعة الزوجية والبنوية لرئيس العائلة وقلة الحاجات — كل ذلك كان في العائلة القديمة ظاهراً اشدظهور ولا يكاد يبقى منه أثر اليوم بعد اندفاع العائلات الشرقية في اثر العائلات الافرنجية · والذين يحكمون ان العائلة السورية والمصرية هي اليوم أسعد منها قبل دخول المدنية الحديثة اليها ينظرون الى السعادة من جهة التعريف (النيتشي) لانهم يرون ان الرجل والمرأة في العائلة الشرقية الجديدة اصبحا اكثر شعوراً بحقوقهما وقوتهما مما كانا يشعران به من قبل واكثر تمتعاً بثروة الدنيا وخيراتها وأشد علماً بالحياة وشؤونها · وهذا الكلام يجرّنا الى (تعريف العائلة) للنظر اليها من هذين الوجهين وبذلك نحيط بجميع اطراف الموضوع

﴿ تعريف العائلة ﴾ العائلة او العيلة في اللغة زوجة الرجل واولاده · ونحن نضيف الى هذا التعريف « ومنزله » فانه ليس بعجيب من العرب القوم الرحل ان يهملوا ذكر (المنزل) لان منازلهم كانت ضعيفة متنقلة ولئن كانوا يربون فيها رجالاً ويستميتون في الدفاع عنها · اما اليوم (ففن تدبير المنزل) مساو في الاهمية لفن تربية الزوجات والاولاد

فالعائلة اذاً تتألف من اربعة عناصر

(١) الزوج

(٢) الزوجة

(٣) الاولاد

(٤) المنزل

ونحن نلقي الآن على كل من هذه العناصر الاربعة نظرًا سريعًا لنرى أهو اليوم عندنا اسعد حالا مما كان من قبل ونجعل نظرنا اليه من جهة التعريفين معًا · اي من جهة تعريف الروحيين للسعادة ومن جهة تعريف نيتش لها على ما تقدم ·

نبوغ واختلال

او

﴿ رواية قان ﴾ (١)

تعريب « احد الكتاب المجيدين »

هو قان Kean نابغة ممثلي الانكليز في القرن التاسع عشر وشمس ملاعب التمثيل وقمرها · وموضوع الرواية بيان ما يرافق نوابغ الرجال من اختلال الاحوال ووصف بعض طبقات الانكليز العليا وما كان يقع بينها من الحوادث الغرامية والخلاعة التي تدل على حالة ذلك العصر واخلاقه

.....

ولما انتهى بالسيدتين الكلام الى هذا الموضوع دخل الكونت كفلد زوج الكونتس ابلينا · وفي دخوله قال لسكرتيره بصوت رفيع

---

(١) خلاصة مانقدم في الفصل السابق ان ابلينا زوجة الكونت كفلد كانت تستعد لاحياء ليلة حافلة في قصرها واذ دخلت عليها صديقتها الكونتس كسويل فدار بينهما حديث طويل ذكرت فيه الكونتس كسويل لصديقتها الكونتس كفلد ان الناس يتحدثون كثيرًا بترددها على ملعب دروري لن لمشاهدة تمثيل قان وانهم يؤكدون انها تحبه